ذكرى المرحوم حفني بك ناصف

في مساء السبت ٢٥ فبراير سنة ١٩٣٩ ، احتفلت محطة الاذاعة بانقضاء عشرين عاما على وفاة المغفور له ، العالم الاديب ، والمحقق اللغوي ، والمصلح العظيم ، والقاضي النزيه ، والمحدث البارع ، والراوية الامين ، الاستاذ الجليل حفني بك ناصف

وقد أذاع ولده الاستاذ مجد الدين ناصف ملخصا لتاريخ حياة والده ، أبان فيه جهوده في الميادين المختلفة ، في خدمة الجامعة المصرية بما ألقى من محاضرات في الادب وتاريخه ، وفي خدمة اللغة العربية بما ألف من كتب النحو والبلاغة ، وباشرافه على تدريس هذه اللغة حين كان مقتشا أول يستمد المدرسون من روحه ويهتدون بهديه ، وفي خدمة القضاء بتلك الاحكام الزمنية وبالبحوث الفقهية التي كانت — ولا تزال — مرجعا يعتمد عليه رجال القضاء

ولقد أثارت هذه الذكرى عند حضرة صاحب العزة الشاعر الكبير الاستاذ علي الجارم بك عاطفة الوفاء ، فبكى أستاذه بشعر وزنه من نبض قلبه وبحره من ماء جفنه قال :

يا قبرَ حفني أجبني ماذا صنعت بحفني ؟
ماذا صنعت بعلْم ؟ وما صنعت بفنّ ؟
وما صنعت بفكر ماضي الشباب وذهن ؟
طويت خير مثاب للطائفين وركن

***

في كل يوم رثاء لصاحب أو لخدن !
حتى لقد كاد شعري يبكي لضعف ووهن
فإنما أنا منه وإنما هو مني
الوزن من نبض قلبي والبحر من ماء جفني
رحى المنايا ، رويدا خلطت طحنا بطحن

وإنمـــا الناس ظعن يسير فى إثر ظعن
فمـــا جديد بباق ولا حـــذارى بمغن
وكل عقـــل مضىٌ إلى خمود وأفن
يكاد إن مال غصن يشكو الزمان لغصن
تعسا له كم نعزّى حينا وحينا نهنى
من اجتماع لعرس إلى اجتماع لدفن
والمرء يحيى الأمانى والدهـــر يبلى ويفنى
فكم تمنيت لكن ماذا أفاد التمنى ؟
دعنى أقلب طرفى فى ظلمة الليل ، دعنى
حيران أضرب كفى أسى ، وأقرع سنى
قد خاننى الدهر يوما ياليتـــه لم يخنّى
أكلما مر نعش أو طاف نعى بأذنى
طار الفؤاد فلولا بقية ندّ عنى
لولا التقى لم أجـــده بجانبى أو يجـــدنى
قالوا أجـــدت المراثى فقلت : إن ، وإنى (١)
دمع عينى قريضى وزفرة الوجد لحنى
علّى أداوى حزينا فالحزن يُمْحى بحزن
أو يشتفى ببكاء من شأنه مثل شأنى

***

أين النبوغ توارى ؟ يا قبر حفنى أجبنى
أكلما لاح بدر رمّه ريح بدْجن
وخلّف الأرض حيرى سهلٍ يموج بحزن ؟

---

(١) إن : بمعنى نعم .

ورب زهـــر شذاه يفوق أرواح عدن
كأنمـــا منحته ألوانها ذات حسن
جماله الغض أغرى أغصانه — بالتثنى
غذته أطباء طـــل حينا وأندية مزن
تسرى به الريح رفقا فى خشية وتأنّ
كأنها فم أم يمر فى وجنـــة ابن
النحل ترشف منـــه رحيقـــه وتغنّى
تجنى فتجنى خـــدودا من دوحه حين تجنى
طغت عليه سموم حرى كأنفاس جن
فغـــادرته ركاما أجف من عود تبن
والدهر أحرى رفيق بأن يخزن ويخنى

***

ياقبر حفـــنى أجبنى وارحم بقية سنّى !
قد راعنى منك صمت بحقـــه لاترعنى
ففيـــك أمضى جنانا من كل فصح ولسن
وفيـــك شعر نقى من كل وقص وخبن
كأنه بسمات للوصل بعـــد التجنى
أو نفحة من جميـــل طافت بأطياف بثن
أو رغوة من سـلاف تفيض من رأس دن
كم نكته فيه كادت تخـــنى على كل ظنّ
مصرية جال فيهـــا ذوق الأديب المفن

***

لو كنت تعرف حفنى لقلت زدنى وزدنى

نحو يصك الكسائى ويزدرى بابن جنّى
وإن أثير جـــدال رأيته خـــير قرن
العلم خير ســـلاح له وأوقى مجن
قد كان ضخما جسيما يبدو كشامخ حصن
فى وجهه لمحـــات من روحه المستكنّ
والصدر رحب فسيح ما جاش يوما بضغن

***

قد زارنى ذات يوم فى وقت قيظ وكنّ
فكان أنسا تدانت به المنى بعـــد ضن
فاض الحديث زلالا عذبا وماقال قطنى!
فـــكاهة من لدنه ونكتة من لدُنّى
فى الأذن قهوة كرم والكنّ قهوةُ بُنّ
أروى ويروى القوافى كالدر وزنا بوزن
يامجلسا عاد شوقا يذكى الفؤاد ويضنى
ضاع الصبا ورجعنا منـــه بصفقة غبن

***

حفنى، ســـلام ونور لقلبك المطمـــئن
فارقت أهـــلا وسكنا لخـــير أهل وسكن
تثنى إليك القوافى أعناقهـــا ثم تثنى

علي الجارم